القات

من ظهوره إلى استعماله

عبدالله البردوني

فصل من كتاب (الثقافة والثورة في اليمن)

Yemen Archive
أرشيف اليمن
YemenArchive yemenarchive.com

القات من ظهوره .. إلى استعماله ..

لا بد ان شجرة القات كغيرها من الاشجار المكتشفة في العصور الوسطى مجهولة الميلاد، لسبب واحد هو أننا لا نهتم الا بميلاد ما ننتفع به كالابل والخيول والأغنام والأبقار. فإن الناس يشرفون على إلقاحها ويؤرخون ميلادها كأولادهم، إمّا كتابةً عند المتعلمين أو اقتراناً بالأحداث عند غيرهم، كما يتطلعون إلى انبات المراعي والزروع.

ومن المعروف ان القات لا يَلحَق بالمُنْتفَع به لأنه لا يُستعمَل اخشاباً أو حطباً أو مرعى، لهذا تعتبر بداية ظهوره مجهولة، وقد ترجع إلى عهود قديمة ربما قبل الاسلام وربما قبل الميلاد.. فمن المعقول انه نبت عندما صلحت الارض لانبات الشجرة، ثم بقي كغيره من الاشجار التي لا تلفت انتباهاً.

يقول عنه البدو الرحل حين يرون الازدحام عليه في الأسواق: كم رأينا مثل هذا في الشعاب، ما عرفنا له فائدة.

ومن عادة القات انه بطيء النمو إذا تخلت عنه العناية، وقد كان محروماً من أية عناية انسانية كغيره من الاشجار المعدومة النفع. قال أحد المعمّرين: عندما شاهد اهتمام الناس بالقات في مغرب عنس: اني شاهدت في شِعب حطرمة شجرتين من هذا فاستصحبه أحد المغاربة إلى ذلك الشعب فوجدا أربع شجرات وبعد أيام نقلها المغربي إلى بستانه واصفاً اياها بأنها من اجود فصائل القات، ولعل لهذا الشِّعب امثالاً.

وعلى هذا فلا يقدر احد ان يحدد ظهور شجرة القات، الا انه يمكن على جهة التقريب ان يلاحظ ظهور استعماله في اليمن، فمن الممكن أن استعماله يرجع إلى القرن الرابع عشر ميلادي. فقد اشتغل فقهاء القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي بالجدل في تحليل القهوة وتحريمها، وقيل في هذا الكثير من الافتاء بالتحليل والتحريم.

رأى عبد الله بن القاسم انها مجرد ماء مغلي اضيفت اليه مادة من قشور البن أو من البن غير مسكرة في ذاتها ولا تكون مسكرة مع غيرها ثم لم ينص على تحريمها أو تهليلها دليل، ورأى ابن بهران الأنسي أنها لاتخلو من طعم مكيف ومن تغيّر الحال، وقال

الحقُني الكبير: هذا شيء مسكوت عنه، فهو عفوٌ. أما البعض فقد شبهوها بالقوة التي في احـد اسماء الخمرة أو المطبوخة من ذلك الجنس. وانتهى الرأي إلى اباحة استعمال القهوة، وهذا رأي وسط بين التحليل والتحريم كما هي عادة المثقفين بالفقه في تقسيم المسائل إلى تحليل وتحريم واباحة وجواز. كذلك كان الجدل في تدخين التنباك ومضغ القات. لكن اباحة القهوة قد أدت بشكل أو بآخر إلى استعمال القات. وضآلة الجدل في تحليله أو تحريمه، ولعل هذا يرجع إلى ندرته، أو قلة شيوعه.

وهناك عدة حكايات سماعية تشير إلى سبب استعمال القات.. فهناك من يرى ان (تيساً) هو أول من اكتشفه، فدل الراعي عليه، فوجد تيسه في غمرة ارتياح. وفي اليوم الثاني راقب ذلك التيس فرآه يذهب إلى ذلك المكان وتركه وقتاً ثم تبعه فوجده مملوء الفم بأوراق خضراء، فالتفت إلى مصدر الأوراق فرأى شجيرة نحيلة الغصون محمرة الأطراف فراقه منظرها لامتزاج الخضرة بالحمرة، فقال في نفسه: ولماذا لا أجرب طعم هذه الأوراق التي جعلت التيس وادعاً مستريحاً.

ولما تناول أول غصن دعاه هذا إلى ثانٍ، ثم اقتاده الثاني إلى الاستكثار منه حتى امتلأ به فمه. ثم استرخى على حجر وهو لا يشعر بمرور الوقت، وكان إلى جانبه ذلك التيس الذي انتبه إلى الرواح قبله. وحين عاد الراعي أخبر بما وجد، ولم يثر اهتماماً، كمـا تثيره أخبار المفزَعات. إلا عندما قيل إن جنية تقمصت هيئة تيس هي التي دلت الراعي على هذه الشجرة طمعاً في اختطافه لنفسها. وهناك من يرى ان جمال منظره هو الذي اغرى بمضغه، وهناك من يرى ان أول من استعمله الصوفيون، كوسيلة من وسائل العون على التواجد، وقد حكي ان أحمد «ابن علوان» وهو من شعراء القرن الثالث عشر اعتبره بديلاً عن الخمر الذي تاب عنه، كما حكي ان الإمام عبد الرحمن «البرعي» وهو من شعـراء القـرن الرابع عشر كان يستعمل القات. كما رأى صوفية مصر يمضغون الحشيش الأخضر. ويقـال ان (الاسمـاعيليـين) في نجران أول من استعمله وأول من اتخذ منه احب الهدايا، فاختطوا له بساتين في شرقي حراز، ولعل هذا يرجع إلى القرن الثاني عشر ميلادي، حين كان اسماعيلية نجران على يسار من العيش وعلى جانب من الوجاهة.

وعلى كل فليس هناك تحديد مضبوط لفترة أول استعمال القات.. كما هي عادة مجهولية أكثر البدايات، الا انه بدأ يشيع من اوائل القرن السادس عشر ميلادي، وقيل فيه الكثير من الشعر، بعد ان صار شائعاً وبعد ان سكت حوله التحليل والتحريم. من أمثال قول «ابراهيم الهندي»:

أشبِّهُ ثَغرَهَ والقاتُ فيهِ وقد لانت لرقَّته القلوبُ
لآلىءَ، قد نبتن على عقيقٍ وبينهما زُمُردةٌ تذوبُ

ومثل قول «يحيى الشامي»:

ان في القات غصوناً قلّ عنها كلُّ خَوْطِ
فاصرف الهم عن النفس اذا شئت بـ «سوطي»

والسوطي احد اصناف القات. وهذه النصوص متأخرة الزمان لمجيئها بعد شيوع القات.

ومن هنا يمكن للمرء ان يجزم بقلة استعمال القات وقلة غرسة، قبل هذه الحقبة، إذ لو كان موفوراً كاليوم لما كان موضع الغزل والتشهي والسرقات العنيفة ليلاً، ولعله كان مرتفع السعر لا يصل اليه المرء الا بثمن غال وبحظوة خاصة في الرزق. وقد كان الشعراء يتغزلون به وهم من المحظوظين عند الأمراء أو من ذوي الأمر، أو من ورثة الأغنياء. وربما كان بعضهم من رجال الدولة أو من المقربين إلى رجال الدولة مثل: عبد الله بن الإمام شرف الدين. والذي له في القات أشعار سائرة، كما في كتاب (القات) الذي أصدره مركز الدراسات اليمني.

وعلى هذا يمكن ان نتصور ان القات انتشر بين أعلى الطبقات، ولم تصل إليه الطبقات الوسطى في القرن الثامن عشر لارتفاع سعره وقلة مغارسه.

وقد كان حقل القات اغلى الحقول عموماً كما تدل بعض وثائق البيع والشراء التي يرجع بعض تواريخها إلى القرن العاشر هـ وبعض تواريخها إلى القرن الثاني عشر هـ وأول وثيقة في شراء حقل قات: «اشترى «مسعود النخعي من هزّام البليلي في ريْمه في القرن الثاني عشر هـ بستان قات بمأتي حرف أي مائتي ليرة ذهبية».

ولا تشترى حقول القات باغلى الأثمان الا بعد معرفة زيادة المردود منه، لأن أسعار الأراضي الزراعية كانت منخفضة الثمن إلى ستينات القرن العشرين. ونتيجة لغلاء القات أرضاً وغرساً بدأ القادرون يتوسعون في زراعته. ولا بد ان الحملات التركية كانت تخفف من استعماله لأنها كانت تحرقه في شدة هجوم العصابات عليهم، ولهذا اتهم الاتراك بتعاطي الخمر لسبب واحد هو انهم لا يمضغون القات على قدرتهم على شرائه.

ومن اوائل هذا القرن بدأت زراعة القات تنتشر اكثر من أي وقت حتى عم اكثر المناطق. فأولى المناطق التي عرفت بزراعة القات هي:

عتمه والعدين وصبر ووصاب ومغرب عنس ويافع، والسبب في انتشار زراعته في هذه المناطق واشباهها انها مناطق جبلية لا تصلح إلا لمقاسم زراعة القات. ولأن الأودية ضيقة المساحة بين الجبال المتقاربة. ففي عتمة مناطق كـ «سماه العليا» والوصابين وصبر وريمه لا تزرع إلا القات. وفي، صبر مناطق لا تصلح إلا للقات.. فكان اهل الجبال

يبيعونه لأهل الاودية وكان يجري التبادل بين الحبوب والقات.

قال اسماعيل الثلائي: «بعد رجوعنا من سوق الثلوث دخلنا بلاداً في عُتُمَهْ ليس فيها قصبة زرع، وكل مكان فيها أشجار قات، فاستغرب أحد أهل البلاد قولنا: من أين يأكل أهل هذه البلاد. فدعانا إلى جبل عالٍ وقال: انظروا تلك الأودية المليئة بزراعة الذرة، كلها تجيء إلينا حاصلةً، ونعطيهم من هذا القات، ولنا الفضل في ذلك». غير أن مساحة زراعة القات ظلّت تتسع وتمتد من منطقة إلى أخرى حتى وصلت المناطق التي كان أهم غروسها الكروم والتين وسائر الفواكه.

وأول ما ظهر في منطقة صنعاء في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وأول ما ظهر، في الحيمة ثم امتد إلى بني مطر، وإلى المناطق الشرقية من حراز. وفي الربع الأول من القرن العشرين ميلادي بدأ ينتشر في همدان ثم اتسع انتشاره وتكاثرت الوانه.

وسمي بعدة اسماء وكل اسم ينتسب إلى المنطقة التي يزرع فيها، كالسوطي والحجّاجي والضلاعي والبخاري والصبري والمغربي والوادي والعصري .. الخ، والبخاري يعتبر امتداداً للصبري. ومنطقة البخاري تشبه منطقة (صبر) في صلاحيتها لزراعة القات. وإلى جانب نسبة القات إلى مناطقه، انتزع له المواطنون صفات من ذاته. كالمخضرب إذا كان قوي الارتواء بالماء وكالنزّي إذا كان حلو القضم قليل السيولة في الفم، وكالمثاني إذا أطلع العود غصنين، وكالمبروح إذا كان منقى من الأوراق الصفر والمتيبسة وهو في شجره، وكالبزغة، وهو الذي يقطف فور ارتفاع أغصانه.

وعلى امتداد زراعة القات وانتشارها فقد بقي استعماله محدوداً في المدن ثم انتشر إلى المراكز لكنه لم يكن ميسوراً إلا للخاصة، ولعل قلة الدخل المحلي ساعدت في الابتعاد عن القات أو في قلة استعماله.. فمنذ بداية دولة الإمام يحيى عام ١٩١٩ إلى مصرعه عام ١٩٤٨ كان لايستعمله إلا كبار الموظفين والتجار ويتناوله الآخرون بمقادير قليلة وباسراف في ايام الرخص.

ومنذ عام ١٩٤٨ م بدأ القات ينتشر اكثر في الاراضي المنبسطة، وبرغم هذا الانتشار فلم تستعمله القرية إلا في المناسبات الكبيرة كأعراس الاغنياء أو موتهم أو وصول القات إلى ادنى درجة من الرخص. ولعل اكثر المناطق استعمالاً له عتمه وصبر والبخاري وريمة والمحابشة وكل المناطق التي تتكاثر فيها الحرارة والرطوبة فإنها تمضغه مرتين في اليوم. من ارتفاع الضحى إلى الظهر وتسمى «التفذيح» والثانية من قبل الغروب إلى منتصف الليل وتسمى «تخزين». وفي أيام الامطار يتناوله المواطنون في هذه المناطق بالمجان لأن اثمانه لا تغطي تكاليف الاسفار به إلى المدن.

ومن عام ٦٠ إلى ١٩٩١ م كاد القات ان يعم جميع القرى بل يستأثر بأخصب المزارع ذات الري النهري أو الآباري، فإلى قبل ثلاثين عاماً لم تكن تستعمله مناطق يريم وجهران وعنس والحدا وخولان والمناطق الشرقية عامة، وإلى الآن ما تزال هناك مناطق لا تمضغه ولا تريد ان تجرب مضغه مثل محافظة حضرموت ويمكن أن يعتبر اتصال القرية بالمدينة سبباً رئيسياً في استعمال القرية للقات، ويظهر انها ارادت ان تنافس المدينة، فقد اعتبر القات اكبر مظاهر الانس واكبر دليل على الذوق الاجتماعي.. لهذا اخذت القرية تنافس المدينة في السنوات الاخيرة نتيجة غلاء الحبوب والاغنام والسمن وكل السلع التي وفرت دخل القرية بالإضافة إلى الدخل المبعوث من المهاجرين إلى أهلهم عن طريق المدينة. فعندما احس الفلاح انه قادر على شراء القات نافس اصحاب المدائن المعتبرين عنده ارفه الناس عيشاً واعلى نماذج الذوق والفهم.

ولأن المدينة لا تفترق كثيراً عن القرية فقد اقتبست القرية من المدينة اردأ ما فيها: كحجاب نساء الاغنياء وشراء القات ويمكن ان يعتبر الذكاء الفطري كثير العيوب لانه يقلد بلا فهم ويتمدن تلقائياً حباً للمحاكاة، لا تأثراً بالفن المدني.

وفي السنوات الاخيرة ادمنت القرية القات واصبحت تحسب له حسابه كالمدينة تماماً. ففي كل قرية بيّاعون للقات يستوردونه من أي مكان يوجد فيه، وبعد ان كانوا يستعملونه بالمناسبات اصبح من العادات اليومية يرادف الاكل والشرب حتى انهم ايام الحرث والحصاد يأكلونه في الليل عوضاً عن النهار، لكن الذي يلاحظ انه لم ينقص شيئاً من نشاطهم العملي إلى الآن وقد يؤثر عليه اذا طال الاستعمال.

والمشكلة ان أجود الاراضي المروية تحولت إلى مغارس قات بعد ان كان في السفوح وخصور الجبال واصبحت العناية تنصب على القات.. فبعد ان كان يثمر في العام مرة واحدة اصبح يثمر في العام مرتين في الارض المروية، بل اصبح بعد رشّه بالتراب والمبيدات الحشرية يستثمر في العام ثلاث مرات وأكثر. لأن التراب والمبيدات من وسائل سرعة بزوغه وبالأخص إذا استقي بعد رشه. وقد هداهم إلى هذه الطريقة حيوان هو الحمار كما هداهم إلى استعماله التيس من قبل.. فقد لوحظ ان الجذوع والأغصان التي تقع بالقرب من الطريق تبزغ بسرعة بفضل ما يطير اليها من التراب بفعل مرور الحمير والابقار والآن أضيفت عملية تسميد تربته بخميرة البيرة وقد هدى إلى استعمال هذه الخميرة غسيل أوعية العجين الذي يراق اسفل شجرة القات وقد تستجدّ تجارب اخرى ما دامت الملاحظة منصبة على تنمية القات.

وما دام القات قد تحكم في الأرض والنفوس فلا بد ان يجتث من النفوس اولاً ومن

الأرض ثانياً ولا يتم ذلك الا ضمن خطة ثورية اصلاحية تقدر على ايجاد البديل الافضل.. وبشرط ان يكون هذا العمل: وسيلة وغاية نابع من مجتمعنا، وفي صالح مجتمعنا.

فعندما حاولت حكومة محسن العيني عام ٧٢ اقتلاع القات استجاب بعض المزارعين من ضواحي صنعاء وتشدد اكثرهم في كل منطقة بل تعسكروا حول اودية القات وبساتينه مدججين بالمدافع الرشاشة والبنادق الاتوماتيكية إلى جانب دعاية ضد محاولة اقتلاع القات، اذ أشاعوا ان حانات الخمر ستحل محل دكاكين القات، وهذه اشاعة غير جديدة فقد كانت تقال لمن يعيب اكل القات ويشبه متعاطيه كالحيوانات التي تعتلف المراعي والبرسيم كما في قول عبد المجيد المصنّف:

انما القات حشيش أخضرُ ليس محتاجاً إليه البشرُ

وتوالت هذه النفثات الشعرية من حين إلى آخر، وذلك عندما نشر عبد الله بن علي الشرفي قصيدة في جريدة سبأ عام ٥٦ ميلادي وفيها ركز على أثر القات صحياً ومالياً كما يقول:

إنْ شئت تعرف آفة الآفات فانظر إلىٰ ادمان مضغ القات
القات قتل للمواهب والقوى ومضيّع الأموال والأوقاتِ
واذا نظرت إلى وجوه هواتهِ أبصرت فيها صفرة الأمواتِ

فردّ عليه سكرتير الصحيفة (احمد طربوش) بقصيدة شبه مكسرة، مطلعها :

غير ضارٍّ في ملتي واعتقادي غصن قاتٍ أريح فيه فؤادي

فبدل التراشق الفقهي حول التحليل والتحريم قام التساجل الشعري من فترة إلى فترة، حتى قيل في تزيين القات وتشنيعه (ديوان) من الشعر الأخضر لانقسام الشعراء في نفع القات أو ضرره وفي التغني به بلا حس بالنفع أو الضرر وانما تعبير عن النشوة النفسية التي يحدثها القات، ولعله أصبح مألوفاً فلا يقتدر على اثارة خصومة أدبية أو جدلية فقهية، لأن سيولة النقود قد أغرت بشرائه وغرسه ومضغه، وذلك نتيجة حرب الستينات التي أغدقت على المحاربين من الفريقين إلى جانب حوالات المغتربين في ديار ثروة النفط وفي أصقاع العالم، فهل أعرض عنه من أعرض لغياب ثمنه عن اليد لكثرة القادرين على شرائه بأعلى الأثمان؟ ، مع ان هذا اليسار لم ينبثق من دخل قومي مضمون الديمومة وانما هي مصادر آنية وقد تعطلت الآن مصادر الاغتراب نتيجة حرب الخليج وجرّاء اختلاف سياسي بين أقاليم الجزيرة، ومن الملحوظ أن أغلب العائدين من الغربة لا يمضغون القات على عهدهم للزمن الذي غرّبهم، ولعل القات في زمن حرب المخدرات أهون

الشرّين. فهل يتكهن أي متكهن باقتلاعه أو الاقلاع عنه؟ ان في نفوس الغالبية تساؤلاً عن القات وما سبب قوة سلطانه؟ وهل سيتخلص منه الشعب اليمني ليتفرغ لأعمال مثمرة أو ليقطع دابر الفتنة بين كبار الموظفين وطلاب المنافع، لأن عبارة «حق القات» اصبحت رمزاً صارخاً إلى الرشوة، لأن أصحاب المناصب هم الأقدر على أخذ الرشوة لاحتلالهم مواقع النفع والضرر، فصارت الرشوة التي تشتري القات الأجود حقاً على طالب المنفعة للقادر على النفع أو للضار لكف ضرره، وقد جرى في عدة مقاوت حساب الانفاق على القات، فأثبت ذلك الحساب أن أعمدة العوائل يصرفون في سوق القات كل يوم اكثر من حاجاتهم اليومية، فهناك من يشتري بألف ريال وهناك من يستهلك بخمس مئة ريال، أما الأقل دخلاً فلا يقل صرفه على القات من المئة أو الخمسين، على حين كان ثمن الحزمة من القات الجيد ريالاً واحداً أو نصف ريال عقب الأمطار في الاربعينات والخمسينات، أما اليوم فان أثمانه بالألوف والمئات ـ رغم الاتساع في غرسه وقوة تعهده ـ، ولا يقدر على شراء الأجود الا اصحاب الدخول غير الشرعية من الرشوة بأسمائها المتعددة، ومن المؤسف أن الفقير هو الذي يدفع من صغار الموظفين والعمال وقادة السيارات وأصغر الباعة، وهؤلاء يقدرون ان يصرفوا ما يجدون ولا يتمكنون من ادخال أي ريال غير الأجر الشهري أو اليومي، فتسببت دفوع أثمان القات في سوء تغذية الأطفال نتيجة غلاء الحليب والسكر، لأن اليد الأفقر اكثر أفواهاً وأفتحهم فماً، لأن القات هو الذي يستدعي الدفع الفوري لضياع ساعات تمتد من منتصف النهار إلى الغروب وما وراءه اذا توفر المدد الأخضر الناهب الواهب، وفي الأيام الاخيرة طارت اشاعة عن القات بأنه يخفف من كمية السكّر في الدم فأصبح مريض السكّر يداوي الداء بالداء على حد قول النواسي، وفي ذلة الأفواه تحت سلطان القات سكتت تلك النفثات الشعرية التي تعاقبت من فترة إلى اخرى.

غير أن عواقب القات لم تسكت، فها هو اليوم سبب امتصاص الرشوة وسبب سرقة المال العام وسبب السطو النهاري والليلي، لأن الولوع بالقات يحمل صاحبه على ان يستعد له من صباح كل يوم لكي يشتريه ظهر كل يوم وينحر به بقية اليوم ولا يبالي من أين وصل اليه ذلك المال. أما أهم الأسباب فإن أغلب ماضغي القات لا يصحون من سكره، إلا بسكر الخمر الذي تستدعيه كآبة بعد القات، وطلب النوم. وقد أطلق الشبان في السبعينات على الخمر صفة «محو آثار العدوان» أي محو آثار القات بالخمر، وكانت أكثر الجلسات لا تنعقد على القات، إلا وقد خبأت وراء الوسائد، قوارير الخمر، أو تأكدّت من حضوره بعد القات فوراً، فأصبحت كل حزمة قات تتطلب نصف قارورة من الخمر،

الذي ارتفـع سعـره كالقـات وأعلى، إذ أصبح ثمن الزجاجة أكثر من (٤٠٠) ريال في صنعاء، وأكثر من (٢٠٠) في عدن وتعز والحديدة، نتيجة سرية بيع الخمر. وبهذا أصبح الخمر لزيم القات، لا بديلاً عنه كما أشاع البعض. ولقد أصبحت هذه الغصون النضيرة في اليمن ذات تأريخ، لأنها حملت صفة النشوء والارتقاء والتعميم والتخصيص فتطورت كالمجتمعات اليمنية، وامتدت منها أبناء وحفدة تسارعوا في التحول السيىء أكثر من الآباء، حيث تعمم القـات في السنوات الأخيرة على الرجال والنساء. فأين المؤرخ ابن الديبع ليضـع له تأريخـاً على هذا العنوان الذي يشبه عناوين مؤلفاته، (خذ وهات في تأريخ الرشوة والقات).

ذهـب الذيـن أحـبـهـم وبـقـيـت مثـل السـيـف فردا

يمكن القات أن يتمثل بهذا البيت لتفرده بسلطانه، حتى أصبح رئيس الرؤساء وسلطان السلاطين.